الحضارة .. والجنس

في أدب د. هـ. لورنس

بقلم فريدة النقاش

عرف معظمنا « د. هـ. لورنس » بأنه كاتب عني طوال حياته بمعالجة التجارب الجنسية ، ووصف تفاصيلها الدقيقة بقصد الاثارة والتماس الشهرة . والفكرة التي شاعت عنه تبعا لذلك ، هي انه كاتب منحل رصد عمره للعلاقات النسائية والمغامرات التي استوحى منها قصصه .

والحقيقة ان « دافيد هوبرت لورنس » كان فنانا اخلاقيا كبيرا ، ابتدع معنى جديدا للتصوف وتقديس الحياة والعلاقات الانسانية ... وكان نتاجا للعذاب والمعاناة والقلق الذي عاشه كأحد أبناء الطبقة العاملة الانجليزية في اواخر القرن التاسع عشر . فهو ابن لزواج غير متكافيء بين احد عمال المناجم ومدرسة من الطبقة المتوسطة ... وهذا المزج بين الطبقتين خلق في لورنس الفنان تحديا للعالم جعله يحاول في كل اعماله ان يكشف عن عبقرية الرجل البسيط ومواهبه . وكان بأعماله الكثيرة المتدفقة اكبر دليل على هذه الحقيقة التي جاهد طويلا لاثباتها وفرضها . وكان « لورنس » يكره الطبقة المتوسطة ويحب « العوام » لانه ينتمي اليهم . ولكنه من فرط انتمائه لطبقته كره بؤسها وحيانها المنفرة ، خاصة حياة المنجم التي قدر له ان يقف على ادق تفاصيلها طوال ما يزيد على خمسة وعشرين عاما قضاها مع ابويه وشهد فيها طوابير العمال في رحلتي الصباح والمساء الى قاع الارض ومنه . وبدت له هذه الحياة غير بشرية تنقصها لمسة الجمال التي منحها الله للناس ليستمتعوا بها . ولم تخل قصة من قصصه الا نادرا ، من وجود منجم وقاع يذهب اليه آلاف العمال كل صباح ويعودون ، وقد اكتست وجوههم بالفحم والبؤس وارتسمت عليها علامات الظلم الواقع على طبقتهم ، وظل ابطاله الذين ينتمون الى هذه الطبقة ، او يقتربون منها في وضعهم الاجتماعي – ظلوا جميعا يحملون حقدهم كالصليب على الطبقات الكبيرة المالكة ويحملون تطلعاتهم ومطامحهم للخلاص . وكانوا اذكياء القلب يتمتعون جميعا بالعبقرية والنبوغ المتوقد الذي يشعله الحماس للافضل . وكان «د. هـ. لورنس» واحدا منهم ، واحدا من ابناء « الفوغاء » ، ذكيا متوقد الحماس يعيش للشعر والحب ، خاض كل تجاربه من الحياة والكتب بنفس الصدق والعمق ، وكان أمينا لكل الافكار التي خلقها وتبناها ودافع عنها . فلم يكن يكتب عن الجنس بقصد الاثارة ، ولم يكن يستوحي وصفه للعلاقات الجنسية من مغامراته وانحلاله ... وانما كان « لورنس » زوجا وفيا مستقيما وسعيدا احب زوجته واخلص لها طوال حياته .. وكان يقدس علاقة الزواج ويحترمها ، ولم يكن « بطلا مغوارا » في عالم النساء والليالي الصاخبة ، ولكن « بول » في قصته « ابناء وعشاق» وهو المقابل لشخصية « لورنس » لم يجرب العلاقات الجنسية الا حين بلغ الثالثة والعشرين ، وظلت علاقته « بمريم » بريئة كالزنبق طوال ما يزيد على الخمس سنوات من اللقاءات الفكرية المشحونة بالشعر والايمان بالطبيعة واحترام المرأة . وليس معنى ذلك ان العكس يعني الانحلال ولكن ماينبغي تأكيده ان مفهوم لورنس للجنس كان شيئا مختلفا تماما عما تعارف عليه الناس وصدقوه . فالقارىء المتعمق لادبه يجد هذه الحقيقة ناصعة كالشمس ، ويجد ايضا الرد الصحيح على هذا الفهم الخاطيء .

* * *

فالجنس في مفهوم لورنس وادبه ليس مجرد متعة للجسد يمارسها ابطاله كالحيوانات ، ولكن الجنس هو رد الانسان الوحيد المغلق على نفسه على تحدي الحياة له . وهو قمة اكتماله وتفاهمه مع نفسه ومع العالم ، لانه اتحاد كائنين في لحظة واحدة وضمير وجسد واحد ، هو السمو ذاته ، وهو الارتقاء بالحياة وخلق كائن جديد لم نعرفه من قبل . وهو ذلك الكيان الموحد للرجل والمرأة ، للذكر الخالد والانثى الخالدة ، ومنه تولد الحياة من جديد وتزدهر ، الحياة التي يصنعها أبطاله وقد توصلوا بطريقة او بأخرى الى هذا التكامل والرضى عن النفس . فهم جميعا رجالا ونساء ، وبلا استثناء ينشدون ذلك التكامل الذي يتم فحسب من تجربة جنسية مع كائن آخر يتلاشى وينتهي امام ذلك الفيض من الحنان والكمال الذي تضفيه التجربة على الانسان . فتتلاشى الانا تماما ويتولد الخلق الجديد من كليهما ، وتصفو الحياة وترق حين يعلن انتصار الانسان عليهما . ان «اورسولا» احدى بطلات « نساء تحب » « تنتمي فحسب الى هذا التوحد مع « بركته » ، هذا التوحد الذي يعزف انغاما اعمق يتردد صداها من قلب العالم ، من قلب الحقيقة حيث لم توجد هي من قبل » .

والحقيقة التي يكتشفها ابطاله دائما من خلال تجاربهم الجنسية هي وجود ذلك الكائن الجديد الذي يخلقه التقاؤهم الحقيقي في زحمة هذا العالم المعتم الذي يسوده شر لا انساني لا يعرفون مصدره . فكل منهم يحتمي بالآخر ويتلاشى فيه لانهم يواجهون معا أزمة الانسان الحديث الذي يعيش في قلب الحضارة الصناعية التي وصلت الى قمة ازدهارها في انجلترا مع بداية هذا القرن ، حين عاش أبطال لورنس وناضلوا وتعبوا من اجل الحقيقي والاسمى في الحياة . والحضارة الصناعية بالصورة التي رآها لورنس شقاء متواصل ، وتعذيب لا يتوقف للانسان ، فهي تشده من عالمه الهادىء المضيء وتلقي به الى الطاحونة الدائرة الهادرة بعنف ، تلقى به للاله . ولكي يعيش لا بد ان يتقبل كل ما فيها ، سواء كان مظلوما او ظالما ، فكلاهما في رأي « لورنس » سواء ، لان الصناعة في حين أفسدت جسد الطبقة العاملة وولدت فيها بذور الثورة ، ضربت في الوقت ذاته روح الصناعيين الكبار وخلقت منهم مسخا مشوها للانسان الحق الذي عاش في الماضي .

وابطال « لورنس » تائهون وحيدون ، اصابهم ضجيج الحياة الصناعية بالصمم ، وافسد دخان المصانع كل هواء نقي من حياتهم ، وبات الشيء الوحيد الذي يحققون فيه ذواتهم هو الجنس ، هو زواج الرجل والمرأة ، ذلك الزواج النهائي المطلق الخالد الذي يعين الانسان على طريق الحياة ، ويأخذ بيده في المنجم وفي المصنع . يقول «بركن» البطل الاول من « نساء تحب » والذي ينطق بأفكار « لورنس » التي يصيبها التشويش والخلط في بعض الاحيان « يبدو انه لم يصبح

هناك الا هذا التوحد الكامل مع امراة ، هذا النوع من الزواج النهائي التام .. فليس هناك شيء آخر . ويرد « جيرالد كريش » صديقه ورفيق مناقشاته الدائمة قائلا :

« وتعني انه اذا لم توجد المرأة لن يوجد شيء ! »

ويقول « بركن » « هو كذلك حتما طالما انه لا دالة هناك »

والمرأة في العلاقة الجنسية ليست كائنا سلبيا يتلقى ولا يمنح . وهي ليست مجرد جثة يمارس عليها الرجل متعة ، ولكنها كائن أكثر من ايجابي ، يعطي ويأخذ ويعيش وينفعل ، وهي في رأيه أصل الحياة ومصدر الاشعاع والخصب فيها . انها من « قوس قزح » « رمز للحياة القادمة التي تحتوي في آن واحد على الدين والحب والموت » أما « جيرالد كريش » فهو يرى « أن المرأة منبع الحياة العظيم ، لقد عبدها اما ومادة لكل شيء في الحياة ، وهو الطفل والرجل خلق منها وأصبح كلا واحدا » .

ان ابطال « لورنس » لا يرون في المرأة مجرد جسد حي للمتعة المبتذلة الرخيصة التي يجدونها مع كل النساء على حد سواء ، ولكنهم يجدون فيه الى جانب الجسد ، الطهر والنقاء والتجسيد القوي للمثل والقيم السامية . وتظل المرأة ابدا هي المنبع والمصب لكل شيء ، فهي المادة وهي الارض وهي الطبيعة والقمر .. وهو يقطع العالم ـ طفلا وحيدا ـ بحثا عنها ليرتمي في احضانها ويلتمس لديها الخلاص والعزاء . « وبركن » يفكر في « اورسولا » كشيء نقي طاهر ، تلك الشعلة البيضاء التي لم يعرفها احد سواه ، شعلة الجنس فيها كانت زهرة بيضاء من الثلج في ضميره .

والتشويه الذي احدثته الحضارة الصناعية في نساء العصر ، جعل لورنس يؤمن بأن استقلال الفتاة الحديثه ذاته ، يكشف لنا عن اساها ، فنجد ان « وينفريد انجر » في « قوس قزح » تعيش حياتها بمنطق محكم قاس . هي فتاة شاذة جنسيا بلغت الثامنة والعشرين دون اية تجارب مع الرجال ، وحتى تجربة زواجها من « توم برانجدين » تتم بشكل روتيني لا عواطف فيه ، لانها حين تلتقي به يلتقي الموت بالموت . فقد كان « توم » طوال القصة يمثل التآكل والعفن الذي يسود الحياة الحديثة . اما « هيرموين سنجر » في « نساء تحب » فهي تريد ان تفرض العقل على كل شيء في الحياة ، حتى على الغرائز البسيطة والعواطف الانسانية . وقد باتت المعرفة بالنسبة لها ارقاما وحشدا مملا للمعلومات الجامدة بلا روح ، فافتقدت بذلك كل وجدان المرأة وذكائها وانوثتها ، واصبحت تمثالا ينطق بالكلمات الجميلة دون ان يمس او ينفعل به . ويقول لها « بركن » باحتجاج وتحد حاقد « انك مغرمة بالكلمات فحسب ، فالمعرفة تعني كل شيء بالنسبة لك ، حتى حيوانيتك تريدين ان ترينها بعقلك ، فانت لا تريدين ان تكوني حيوانا ، وانما تريدين أن تراقبي وظائفك الحيوانية لتتوصلي الى نشوة عقلية من هذه المراقبة . وكل هذا ليس الا شيئا عرضيا ثانويا اكثر انحطاطا من اسوأ المذاهب العقلية على الاطلاق » .

وهو بذلك يدين نموذج المثقف الحديث الذي انفصلت ثقافته عن روحه وكف عن التأثير فيها او التأثير بها ... فهي تعرف كل شيء عن المذاهب الحديثة في الفن والفلسفة والادب وتتحدث بلباقة فائقة وفهم رائع لكل شيء ولكن قلبها وروحها يظلان منطقة حرام على كل هذا الفيض من المعرفة الانسانية .

ولورنس يرفض ذلك ، سواء في الرجل او في المرأة ، وهو يرفضه في المرأة بشكل خاص ، لانها في رأيه منبع كل العواطف والانفعالات والغرائز ، وهي مصدر الالهام في الحياة والفن .

« وهيرموين » نموذج لفتاة الطبقة الارستقراطية الحديثة التي افسدتها الحضارة وانتزعت منها القدرة على الحزن والفرح والحماس للحياة .

والنمط المقابل لهذه الشخصية من الطبقة العاملة يقدمه «لورنس» في ارامل عمال المنجم في « قوس قزح » انهن يتزوجن بمعدل مرة كل عامين ، حين يموت ازواجهن نتيجة لاستهلاك اجسادهم تحت الارض حيث يتنفسون الفحم والغبار طوال اليوم ، ويصبح الزواج المتكرر بالنسبة لنسائهم شيئا عاديا ومألوفا لا يثير الحزن او الفرح . فهن يعشن فحسب ويتجردن حتى من قلق انتظار الموت او الخلاص . وباتت الحياة شيئا يتقبله الانسان دون ان يحاول التأثير فيه او الاجتهاد لمحاربة الشر الذي يتفشى شيئا فشيئا ليفسده ويلوثه .

* * *

ان الشر يتجسد اكثر ما يتجسد في الحضارة الصناعية الحديثة التي استطاعت بمتطلباتها ان تمحو شخصية الانسان وتقضي عليها دون رحمة . وقد ادى ذلك الموقف العنيف الذي اتخذه « د. هـ. لورنس » منها . وهو ليس رفضا فحسب ، ولكنه رفض مليء بالسخط والحقد والتوعد . انه موقف الشاعر المرهف الحساس الذي تفيض روحه بحب الحياة والبشر ، ولكنه يفاجأ بفساد كل شيء ، فيكون رد فعله ضاريا تماما مثل قوة احساسه وحبه .

وكان شيئا طبيعيا جدا بالنسبة لهذا المنطق ان يرفض د. هـ. لورنس الحياة العصرية رفضا مطلقا ، وان يرى فيها شيئا ينتمي الى الخراب والموت . لان الحضارة الصناعية ليست الا لعنة حلت بالارض واوقفت كل أزدهار ممكن فيها ، فتسأل « أورسولا » « بركن » « لماذا لا تزدهر الحياة ؟ ولماذا لا توجد كرامة للانسانية الان ؟ » . فيجيبها « بركن » « ان الفكرة كلها قد ماتت وليست الانسانية نفسها الا العفن المتآكل ، وهناك اعداد غفيرة من الكائنات الانسانية تحوم حول الغابات وهم يبدون غاية في الظرف والتورد ، أناسك هؤلاء الرجال والنساء الشبان الاصحاء ، ولكنهم في الحقيقة ليسوا تفاحات من سادوم ، وليس حقيقيا ابدا ان لهم مغزى فداخلهم يحتك بالرماد الفاسد المرير » .

وهذه اللعنة ليس مصدرها الله ، فهو لم يعد يعرف اذا كان الله ما زال موجودا . واذا ما كان يسير اقدار البشر ما زال ، كما تقول الكتب السماوية . ولكنه يعرف فقط ان شيئا شريرا مرعبا قد حدث وان له ملامح المآسي اليونانية المغرقة في الحزن حيث يغضب الالهة على البشر ويمنعون عنهم الخصب ، ويصبون عليهم لعناتهم ، فتفسد الارض ويصبح البشر مجرد « تفاحات من سادوم » الارض التي انزل الله عليها لعناته واصاب اهلها جميعا بالشذوذ فباتت لا تطرح الا العقم ، الرجال يعاشرون الرجال والنساء يعاشرن النساء ، ويخرجون جميعا على قوانين الطبيعة وشريعة الله ، وتبدو هذه التفاحات من الخارج ناضجة متوردة ، ولكن داخلها مملوء بالعفن والتراب الفاسد المرير » .

ونستطيع ان نسمي الحضارة الحديثة كما يراها د. هـ. لورنس « حضارة الوهم » لانه ما من مناخ تسوده الالة جاء وصفه في احدى رواياته الا وكان شيئا شبيها بالعالم الاخر ... عالم لا يمت الى البشرية بصلة . ولكنه شيء قائم بذاته يبدو غير حقيقي من فرط لابشريته ، فهو يبدأ « عشيق الليدي تشاترلي » قائلا « لقد حدثت الكارثة وما نحن الا في الانقاض ، نبدأ في تكريس عادات صغيرة جديدة ، ونعيش بآمال صغيرة جديدة . وليس أمامنا طريق سهل الى المستقبل ، ولكننا ندور حول انفسنا او نتعثر في المصاعب . وعلينا ان نعيش دون ان نعنى بعدد السموات التي وقعت » .. واذا ما وقع عدد من السموات على الارض فأي عالم يكون ذلك الذي يسوده الضباب ولون السماء دون ان نميز فيه شيئا او يستطيع العقل البشري ان يعمل ويرصد ويستخلص النتائج ؟. ان الارض قد وقعت في حالة من الفوضى تعمي العيون المبصرة وتجعل القلب يقف مذهولا امام ثقل الاشياء .

اما المناجم فالناس تؤمن كأنها تذهب في رحلات جماعية الى الجحيم تقول عنها « جوردون » في « نساء تحب » : « كأنها بلد من العالم الاخر يأتي بها رجال المنجم معهم الى سطح الارض » . فيسود الوهم . وحين تذهب اورسولا في « قوس قزح » لزيارة عمها « توم

برانجوين » تتكرر نفس الصورة . فهو يعمل مهندسا لمناجم الفحم في « ويجستون » بمقاطعة « يوركشاير » « وهو لا يؤمن بالله او بالشيطان ، فكل لحظة من حياته كانت جزيرة منفصلة معزولة عن الزمان » .. كما لو انه قد خدم بعيدا عن الزمان والمكان ، ويتكرر نفس الشكل ، البيوت من الطوب الاحمر على نفس النمط والارتفاع ، نفس عدد الشبابيك والابواب ، وجوه الناس ، ملابسهم وطريقة سيرهم « كان غير حقيقي » .

اما « توم برانجوين » نفسه فهو لا يصدق انه يعيش حقا ، كما لو ان الحياة في ديجستون مجرد حلم مزعج ، واختلطت فيه الرؤى فالموت والحياة والحب والناس ، اشياء تبدو غير حقيقية ، سابحة في الوهم . وهو لم يعد انسانا بالمعنى الذي يراه لورنس للانسان ككائن حي متجدد ديناميكي ، يحب وينفعل ويبكي ويفرح ، قدماه لاصقتان بتراب الارض ونبتها ، ورأسه متجه الى القمر والشمس ، الى الله . ولكن « توم برانجوين » هو الموت ذاته . نفسه تمتلىء مرارة ، اما قلبه فقد كف عن الاحساس بنبض الحياة الغنية . فما من شجرة واحدة أو زهرة وجدها في « ويجستون » حيث وجوه الناس سوداء والارض من الاسفلت الاسود ، والبيوت حمراء كالجحيم ومرصوصة كالارقام ..

اما « الالة » فهي سيدته الحقيقية » والخطأ لا يكمن الا فيها كما يقول « لورنس » في « عشيق الليدي تشاترلي » ... « هناك في هذه الاضواء الكهربائية الشريرة ، وحشرجة الآلات الشيطانية ، هناك في عالم الالة الجشع ، الالية الجشعة والجشع الالي » .

وكما كانت لندن مدينة وهم في « الارض الخراب » ، كانت كذلك دائما في اعمال « لورنس » فحين يصل اليها « بركن » في « نساء تحب » ينقبض قلبه ويشعر بالضياع . وحين تضطر « جوردون برانجوين » في نفس القصة ان تمكث فيها فترة قصيرة في طريقها الى شمال اوروبا حيث تغطي الثلوج قمم الجبال طوال العام ، فتمنح الانسان احساسا بالطهر فيقول « لجيرالد » اشعر كما لو انني لا استطيع ان ارى هذه المدينة القذرة مرة اخرى وأنا لا احتمل ان اعود « اليها ابدا » .

ويسير ابطال « لورنس » في هذا العالم غير الحقيقي، ويعيشون حياتهم يوما بيوم ، ويشقون ويسافرون ، وهم دائما على سفر . وكل منهم دائم الرفض لهذا العالم . اما من يتقبله كما هو فانه ميت يعلن انتماءه الى هذا الكون الذي يعيش على المادة ويتقاتل من اجل المادة ، وتندلع فيه الحروب والمشاحنات بسببها ، ويموت الناس وتشوه ارواحهم واجسادهم في سبيلها ، وحتى المدن التي عرفت عبر التاريخ بجمالها وطبيعتها الساحرة ، اصبحت هدفا لهذا الجشع الذي ساد العصر وقضى على قيمه ...

تذهب « كونستانس تشاترلي » الى البندقية لتقضي جزءا من الصيف مع اختها وابيها حاملة طفلها فخورة بمقدرتها على ممارسة وظائف المرأة . وفي خلال شهور يتحقق حلمها الذي عاشت شبابها كله تناضل من اجله وتكاد تموت في سبيله . ولكننا في مقابل هذا الخصب والفرح نجد « البندقية على البعد مخفضة وبلون الزهور ، بنيت بالمال وازهرت بالمال وماتت بالمال ، جنون المال .. المال .. المال ... الدعارة والموت » فالمدينة مزدحمة اكثر مما يجب تتفشى فيها رائحة العفن رغم الجمال الظاهري ، والناس فيها وحيدون كالكلاب التائهة تستهويها رائحة الجثث الميتة .. وكانت « كوني » تكره الزمام ، تكره الطوابير التي لا تنتهي من البشر ، لانها لا تستطيع ان تتنفس بعمق وحرية حين تحوطها كل هذه الملامح التي لا تكاد تختلف عن بعضها البعض ، فكلها وجوه متكررة لعملة واحدة زائفة ، فقدت حتى البريق الخادع الذي كان يكسوها في البدء .

* * *

وفي مواجهة هذه الحياة الميتة التي رفضها لورنس كلية ، حتى بقيم التقدم الآلي التي بدأت تسودها .. كان يرى ان هناك حلين كلاهما مثالي في نظره . فإما ان تنتهي البشرية تماما ويمحى الانسان من الوجود ، اي يصنع موته بنفسه ، وهو ما يسير اليه بالفعل بواسطة التقدم كما يرى لورنس .. واما ان يلجأ الى الفن او الحب كوسيلة للخلاص . وليس الفن بديلا للحب ولكنه عملية خلق وتكامل مشابهة يلجأ اليها الانسان حين يفشل في العثور على رفيقه المنشود . وهو يمارس عملية الخلق الفني بنفس المتعة والصوفية التي يعيش بها تجربة التكامل الجنسي والنفسي مع الآخر .

واذا بدأنا بمناقشة الحل الاول تتضح لنا النظرة السوداوية المتشائمة التي يرى لورنس بها الحياة في العصر الحديث . فلانه فنان يحب الجمال ويحب الارض ورائحة الزرع والمطر ، ويرى في اسماك البحار ، في الحيوانات البرية ، وفي النجوم والسموات خلقا فنيا بديعا ، وكلها هبة الله للبشر ... لم يستطع ازاء كل هذا ان يتحمل التشويه الذي أحدثه الانسان في الارض فباتت « كراهيته للبشرية ، لجموعها ، وقد بلغت حد المرض » ورغم ذلك فان الانسان في رأيه كائن جميل ، خلق فني أبدعته الايدي اللامرئية ، وهو حين يصف المرأة يرى فيها الزنابق والوان الفجر والغروب ووهج الشمس. وحين يقترب من عيون الاطفال البريئة لا يستطيع النظر فيها لفرط الحسن . « فلورنس » فنان يتذوق كل تفاصيل الحياة الموحية ، والانسان الفرد في رأيه كائن مليء بآيات الجمال والتفرد ، ولكن البشرية ككل حين تجتمع وتصبح شيئا واحدا تبدو كخرتيت له الف قرن والف ذراع والف عين واذن ، وهي بمجموعها لا تعكس الا الشر ، ولا تتكتف ابدا في هذا العصر لصنع الخير والجمال وتذوقهما ، وكلما زاد التصاقهما واقترابهما ازداد في قلبه ذلك الرعب الذي يتولد من منظر الجماعات ، منظر الناس الذين لا ملامح لهم ولكنهم جميعا اصفار متراصة تدور كتروس الالة او دقات الساعة ، دورات رتيبة مملة ومرعبة ، والانسان بهذا المعنى وبالصورة التي يراها لورنس « يسمم الوجود » وهو في هذه الحالة « يفضل تماما ان يفكر في العندليب يصحو في الصباح على عالم ليس فيه بشر ، فالانسان خطأ يجب تلاشيه » .

ان الطبيعة لا تموت ابدا لانها ام كل شيء ، والانسان وان ضل طريقه الى الخير ، وهو في قلب الضلال لا يريد ان يعود ولا يريد حتى ان ينظر الى الواقع في عينيه . فيرفض ان يستمتع بالمساء والاشجار وروائح الصنوبر ، وتطرده الحياة من جناتها الخالدة بعيدا عن الطبيعة . ويستسلم للتحدي الذي خلقه لنفسه ، فيخوض معارك ضد الارض لافسادها ، ويدخل الى باطنها الجميل ليشوهه ، ويضع الالة في كل مكان كنذر الشؤم ، ويقتل بالارهاق والضغينة البديهة والحدس في ذاته . وهو بذلك يلقى بنفسه الى الموات .

فالموت في الحياة ، او الحياة الميتة ، هي النتائج الطبيعية جدا التي يراها لورنس منطقية مع دروب العصر الملتوية المليئة بالمتاهات .

ولكنه يرى مع ذلك ان الموت ليس فناء كاملا في التراب ، وليس مساواة للبشر بالحفار والجثث القديمة . ولكنه قد يكون تحريرا للانسان من عناء هذا العالم المضني ، وقد يبلغ به اعلى قمم الكمال . فحين تصل الثمرة الى قمة النضج ، تسقط على الارض فتملؤها برائحتها . والموت في قمة الحياة قد لا يكون – بهذا المعنى – فناء ولكنه تكملة مثيرة وغامضة لتجربة الحياة اليومية الملموسة والمرئية . والموت هو كذلك اختبار لشجاعة الانسان واقدامه وقدرته على خوض العالم اللامرئي واكتشافه ، ومدى صبره على الغموض الذي يكتنف هذه التجربة الهائلة . وانه لجهد عظيم ذلك الذي يبذله الرجال والنساء حين يتوقون لتلمس هذا العالم الغريب البعيد المجهول ... العالم الذي يكتنفه الضباب وتحوطه الاسرار ، وهو شيء اضاعت البشرية كثيرا من عمرها في محاولة قهره واكتشاف معالمه وتبينها .. يقول « روبرت بركن » في « نساء تحب » « وعلى كل حال ، فحين يحقق المرء ذاته يكون اكثر سعادة حين يقع في الموت ، كما تفرق

الفاكهة المرة في نضجها وتموت .. الموت انجاز عظيم ، تجربة كمال وهو تطور من الحياة من كل ما نعرفه بينما نحن ما زلنا نعيش ، في حاجتنا اذن للتفكير فيما هو بعد ذلك ؟ انالمرء لا يستطيع ان يرى ابعد من الكمال ، والموت تجربة نهائية عظيمة ، فلماذا نسأل عما يأتي بعد التجربة ، حينما تكون التجربة ذاتها غير معروفة لدينا ؟ فلنمت ما دامت التجربة العظيمة سوف تأتي بعد كل هذا . الموت الذي هو العقدة الكبيرة التي نبلغها ونتوقف عندها . واذا ما انتظرنا واذا ما تمادينا في تعقيد المشكلة فانما نحن نجوم حول بابها في قلق لا يليق بالكرامة ابدا . وهناك في مواجهتها ذلك الفضاء المعتم تماما كما كان في مواجهة سافواه* . وفي قلب هذا الفراغ تتم الرحلة ، الا نمتلك الشجاعة لنتم رحلتنا ؟ علينا ان نصرخ قائلين « لا نجرؤ » ؟ الى الامام ، سوف نمضي الى قلب الموت ايا كان الموت يعني ، واذا كان في استطاعة انسان ما ان يرى الخطوة ما بعد القادمة ؟ نحن متأكدون تماما من خطواتنا القادمة انها تتجه نحو الموت » .

وللبشرية معنى مطلق غير ذلك المعنى الحسي الذي يتجسد في الجماهير الغفيرة التي يراها « لورنس » كأنها تحتشد على باب الجحيم . فمهما يكن من امر ، فهي تحتوي على الافراد الافذاذ الذين يعيدون خلق الحياة ويجهدون للدخول من ابوابها الضيقة ، من المعاناة والاسى ليستخرجوا كنوزها الغنية بالجمال والخير ، واذا كانت البشرية بمعناها المحسوس ، شيئا بشعا كما يراها د. هـ. لورنس ، فهي بهذا المعنى المطلق هبة الله للكون فعبرها يتم لحن عرفته اجيال واجيال طوال القرون الماضية . فتصل السيمفونية الى قمتها ويختتم الكورس المأساة الاغريقية ، وتصل عملية الخلق المؤلمة اكتمالها ، فيكون فناء البشرية في هذا الحين هو اللحن الاخير الذي يظل ابدا يتردد في ارجاء العالم شاهدا على عظمة هذا الكيان المطلق ، الذي ملأ الارض بالضجيج والفن ، فيعود « بركن » ليقول وهو يفكر ناظرا الى الارض والمساء « حسن اذا ما تحطمت البشرية ، واذا ما فني جنسنا مثل سادوم ، وظل هناك هذا المساء الجميل المضيء ، وهذه الارض والاشجار ، اكون راضيا ، ان يبقى هنالك هذا الذي يغني الجميع ولا يمكن ان يضيع ، وما البشرية على كل حال الا التعبير الواحد عما لا يمكن ان يضيع ، وما البشرية على كل حال الا التعبير الواحد عما لا يمكن فهمه او ادراكه . واذا ما انتهت البشرية ، سوف يعني ذلك ان هذا التعبير بالذات قد تم وتكامل وان ما نعبر عنه وما سوف نعبر لا يمكن ان يتضاءل او يشح ، انه هناك في هذا المساء المضيء ، ولننته البشرية في الوقت الذي تراه . ولكن الاقوال الخلاقة لن تتوقف بل سوف تبقى هناك . »

* * *

والانسان الحديث في أدب د. هـ. لورنس كائن وحيد جدا ، مغلق على ذاته ، وهو لا ينفتح وينطلق الا حين يجد الحب الحقيقي حيث المرفأ والعزاء . وفي كثير من الاحيان تتقلص الانا وتتقوقع على ذاتها ، وتصبح غير قابلة للتأثر او التأثير ، ويصبح الانسان كوكبا صغيرا يسري ، لا تربطه بالكواكب الاخرى اية علاقة ، فيما عدا تفردهم جميعا وانقلاقهم على انفسهم . وهذه ظاهرة تسود العصر الذي اصابه العقم ، وحتى الحب الحقيقي ربما لا يستطيع ان يخترق ذلك الحصار المقام حول الذات ، وهو حصار بني شيئا فشيئا من جراء شرور العالم وصعابه . فقد كان حارس الاصطبل عشيق الليدي تشاترلي « يستمع الى العاصفة التي تجتاح العالم فيشعر بالوحدة » وتلك العاصفة تسوق كل كائن الى داخل ذاته وتنفيه هناك فيبقى كمن نزلت عليه لعنة الله واصابته بالتبلد ، فلا يجد رفيقا الا الكلاب والطيور والدجاج واشجار الغابة . ويذهب « ميللورز » الى بيته « ممسكا ببندقيته وكلبه حتى وصل الى العش المعتم فأضاء مصباحه واشعل النار ، وتناول عشاءه من الخبز والزبد والبصل الصغير والبيره ، وكان وحيدا في ذلك الصمت الذي احبه » وينتهي الامر بالانسان الى ان يحب وحدته ويغني فيها ويستقبلها كأمر طبيعي ، حتى يسير الناس في الشوارع كالمجانين ، لا يتعرف احدهم على الاخر كأنهم كائنات سقطت فوق بعضها من عوالم مختلفة ، ولا تشترك الا في الملامح .. وفي النهاية يصبح الانسان ابعد حتى من تأثير الحب كما يقول « بركن »

وفي قلب هذا التيه المعتم الذي يسمى حضارة العصر كما يراها « لورنس » تمشي طوابير الضائعين الوحيدين بحثا عن وسيلة لتحقيق ذواتهم ، ولتكن هي الموت . ان لحظات اليأس العميق تجعل الانسان شجاعا ومقداما . فهم حين لا يتوصلون الى شيء عن طريق الحب لا يكون امامهم سبيل اخر الا الموت فيلقون بأنفسهم فيه بلا مبالاة كما يفعل « جيرالد كريش » حين يسير الى قمم الثلج دون ان يطرف له جفن ، وذلك بعد فشله تماما في تحقيق تجربة التكامل بالحب والانتصار على وحدته مع « جوردون » وموت « جيرالد » نموذج للموت المألوف ، موت الجسد والروح ، ولكن هناك نماذج تجابه الموت في الحياة ، وهو نوع اقسى واشد مرارة من ذلك الموت النهائي الذي يقرره « جيرالد » لنفسه وتقف « هيرموين سنجر » و « توم برانجوين » شاهدين على ذلك النمط المفزع من الحياة الميتة او الموت في الحياة ، فتكف مشاعر « هيرموين » عن ممارسة وظائفها وتصبح مجرد عقل يحصى ويجمع بينما يتحول « توم برانجوين » الى جزء من ذلك النظام العظيم الذي يحيط به ، انه جزء من المناجم ومن البيوت الحمراء المتراصة في ويجستون . وهو حين يتزوج « وينفريد انجر » يلتقي العقم بالعقم ولا ينتجان الا الموت . فتحت اشعة الشمس اللافحة وفي قلب تراب المنجم تموت كل العواطف .

* * *

وهناك في المقابل ابطال لورنس الذين يحققون ذواتهم في الحب والجنس . وهم حين يصلون الى ذلك عبر طريق طويل من التعب واليأس والمعاناة ، يكونون قد دفعوا دينهم للحياة واستمتعوا بعد الالم العظيم وبعد المرور من الف باب ضيق ان يجنوا ثمرة ذلك الجهد ويصبحوا نماذج للفرح والكمال الانساني الذي نادرا ما يتحقق في قصص د. هـ. لورنس .

وتقف كونستانس تشاترلي وهي من اشهر العاشقات في العالم مع صديقها ميللورز نماذج لذلك التكامل ولذلك الخروج انساني من قلب الذات المتوحدة المغلقة ، وذلك لخلق عالم جديد بطلاه اثنان رجل وامرأة ، التقيا على حافة الهاوية وانقذهما الحب من السقوط ومن النفي داخل النفس .

وكونستانس او « كوني » تشاترلي ، كانت تريد طفلا ، فهي زوجة لرجل معقد وحاقد امتلأ قلبه بالمرارة وصبها على جموع العمال الذين يعملون في مناجم الفحم وهي ممتلكاته في « نيفر شال » ، وكانت « كوني » بعد ان فقدت الامل في ان تجد ذاتها من خلال الحب في اتحاد تام مع رجل ، قد باتت تحلم بالطفل ، ولكن اين الرجل الذي يعطيها الطفل ؟ ان رجال هذا العصر بخلاء موتورون فقدوا الحس والحدس ، توافد الى بابها عشرات منهم حيث كان زوجها مهتما بخلق مناخ فكري من حوله ، فكان يجمع النقاد والفنانين ليكتبوا عن قصصه ، بعد ان اصبح قصاصا مشهورا الى حد ما ، ولكنه « لا يقول شيئا » فالقصص مكتوبة بذكاء ومهارة ولكن تنقصها لمسة الحنان التي يعايش بها المؤلف ابطاله واحداثه . اما الرجال الذين يفدون منهم من ابناء هذا العصر البخيل . وتعيش كوني قصة تعرف نهايتها منذ البدء مع مؤلف مسرحي شاب يلتقي بها بعدذلك في لندن ويطلبها للزواج اذا طلقت من « كليفورد » وترفض كوني « ومع ذلك فقد كانت كوني تحتفظ بالطفل في عالمها الذهبي البعيد ... انتظري ... انتظري فسوف تغربل اجيال الرجال بغربالها ، وسوف ترى ان لم تجد احدهم

---

* سافواه ... شاعرة لوطية عاشت سنة ٦٠٠ قبل الميلاد .

يستطيع أن يعطيها الطفسل » ... « اذهبي الى شوارع اورشليم وحواريها وابحثي عن رجل اذا ما وجدت رجلا » .

* * *

ويقودنا ذلك الى الحل الثامن الذي قدمه « لورنس » لمشكلة الانسان الحديث في مواجهة هذه الحضارة التي تضع الركود والموت ... وهو اللجوء الى الفن او الحب كوسيلة للخلاص والانتصار على الحيـــاة .

والفن في حياة ابطاله تبعا لذلك لم يكن متعة تمارسها الطبقات المرفهة في المجتمع كما كان سائدا في القرنين الثامن والتاسع عشر ، ولكنه كان معاناة دائمة ونضالا لا يلين مع المادة الخام ، مع الكلمة او الطبيعة او الصحن . انه عملية ديناميكية متواصلة يقوم بها البطـل في داخل ذاته ومع المادة الموجودة من حوله هادفا الى خلق الحيـــاة وابداعها من جديد او على الاقل ترك بصماته الواضحة التي لا تمحى عليها ، ويكون بذلك قد انتصر على الموت او الفناء الذي تمثله هـــذه الحضـــارة .

وكذلك الحب في حياة ابطاله ، انه ليس مجرد حدث عـــارض يقف على الهامش وانما هو حياتهم ذاتها ، يغرقون انفسهم فيه دون رحمة ، فيصبح هو مستقبلهم وهدفهم من تقبل الحياة كلها . وهـــم يحبون بفروسية القرون الوسطى وصدقها لان العالم بالنسبة لهـــم شيء مغلق تملأه المتاهات . وهم يقفون على حافته وليس لاحد منهـم رفيق سوى فنه او حبه . وما اكثر ابطال لورنس الذين عاشوا حياتهم بالفن وله ، وما اكثر ابطاله الذين عاشوا بالحب ومـــاتوا في سبيله وظلوا ابدا رمزا لجذوته المتوهجة التي لا تنطفيء .

ففي « ابناء وعشاق » كان « بول موريل » يحب امـــه ويحب صديقة صباه « مريم » ويقضي بقية عمره في الرسم ، وقد ظلت هذه الخطوط الثلاثة تسير متوازية جنبا الى جنب ، دون خلل حتى ماتت امه وفقدت علاقته « بمريم » بريق الرومانسية والتصوف فلم يبق له سوى فنه يعيش به وله . وفي الوقت الذي تحتضر فيه امه حبه الاول والكبير ، وهي ايضا رمز حبه للارض والطبيعة ، في ذلـــك الوقت لا يجد بول ملجأ سوى ريشته واشعاره .

وتعيش « جوردون برانجوين » حياة الفنان القلق ، تنطلق من بلد الى بلد ، فتعيش وتعاني وتخلق ، وتمتاز في اعمالها بحفر الطيور الصغيرة على الخشب ، فتجرد المياه كلها في كائن دقيق صغير وترسم لوحاتها بنفس القلق . ورغم حنينهاالجارف للانتماء الى طبقتهـا ، الى « الاجلاف والعوام » الا انها مثل كثير من الفنانين ليست لهـا طبقة ولا بيئة ولا وسط ، ولم تكن قيمها مستمدة من أي من الطبقات الاجتماعية ، فلها كيانها الخاص ومثلها الخاصة بها . وهي تجمعها من اطراف العـالم ومـــن اعمال الخلق المختلفـــة عبر القرون . وتقع « جوردون » في الحب ، فتاة ناضجة صقلتها التجارب والعلاقـــات الانسانية المختلفة وصنعت لها شخصيتها المتميزة ولكن على العكس من ابيها « وليام برانجوين » الذي يحقق نفسه ويتوصل الى السلام مع ذاته ومع امرأته ومع العـالم من خـــلال الحب والفن معـــا ، فان « جوردون » لا تستطيع ان تعيش التجربة اكثر من عام نكتشف خلاله الزيف والقيد الذي يكمن في الحب ، وتجد ان لا خلاص لها من خلال الخلق الفني . فرغم هيامهـا « بجيرالد كريش » في البدء فانهـــا تكتشف شيئا فشيئا ان هذه العلاقـــة لا تغني حياتها بقدر ما تحـد انطلاقها وتقضي على تفردها وتلغي كيانها المستقل « فكم اكره اشباه جيرالد لانهم لا يستطيعون ان يقدموا للمرء شيئا اخر » وهي ترفض الوسط البيئة والاهل ، وتعقد الصداقات مع الفنانين من جميع ارجاء الارض والعصور . فحين تذهب الى اوروبا الشمالية في رحلة رباعية لاكتشاف هذا الجزء من الارض التي تغطيها الثلوج تتعرف على نحـات الماني يدعى « ولرك » وهو نموذج اخر للفنان المبدع اللامنتمي . انـه يعيش كيفما اتفق وقد عانى طفولة مريرة وشبابا امر . وجرب الجوع والتشرد والاعمال البسيطة . ومن خلال تجاربه المتعددة الفنية جمع مادته فجاء تمثال الصبية الذي نحتـه صورة ناطقـــة بالعذاب ... تجسيدا له ، وربما كانت تمجيدا دون ان يدري ... ويلتقي الضياع بالضياع . « جوردون » تتبين شيئا فشيئا فشلها في الحب ، وتدرك اي خطأ فاحش كانت ترتكبه لو انها ارتبطت « بجيرالد » واصبحت بين يوم وليلة « مسز كريش » ، وهي لا تبدأ في المقابل قصـــة حب جديدة مع ذلك الفـــارس الالماني القميء الذي تنطق ملامحه بالبؤس والعبقرية . ولكن اللقاء بينهما يتم على هذه الارض الواسعة المترامية الاطراف ، ارض الخلق التي يلتقي عليها آلاف المبدعين ، ولكل تفرده وذاته الخاصة . وتنتهي علاقة « جوردون » و « جيرالد » حتى قبـل ان يموت محنطا على قمة جبل الثلج ، وتعود الفنانة المبدعة من جديد لتنطلق وتصنع وجودها المستقل المتكامل بالفن وحده بعيدا عن الحب والعلاقات التقليدية المتعارف عليها .

اما « اورسولا » في « قوس قزح » فهي طائر حائر يحوم فوق آلاف الغابات ولا يجد له عشا . فهي تطرق سبيـل الحب في بـــدء شبابها . تتعرف على مهندس بولنـدي ارستقراطي « فيثير فيهـــا احساسا قويا بالعالم الخارجي » وهي الفتـاة البسيطة التي تعيش حياتهـا كلها في « بيلدوفر » على حدود الريف وبالقرب من مناجـم الفحم في مقاطعة « نوتنجهام » . وفي حبها « لسكريبنسكي » يلعب الجنس دورا رئيسيا، دون ان يتم التكاملالروحي بينهما فيالبداية كما يحدث عادة في تجارب الحب المتعددة المثالية التي يقدمها « لورنس » في اعماله . كان « سكريبنسكي » بالنسبة لها واحدا من السبـــل التي سلكتها للوصول الى السلام مع نفسها ومع الحياة . ولكنهما لـم يلتقيا كثيرا الا على ذلك الشيء الوحيد ، محاولين الوصول الى قمـة التجربة دون ان يعانيا معا قطع الطريق الشاق اليها بخطواته المتعددة وعثراته المتوقعـة .

وانتهت علاقة « اورسولا » بعد كثير من المعاناة الى هذا التوحد النهائي مع « روبرت بركن » ويتم الزواج المطلق بينهما . ففي علاقتها به استطاعت كما تقول « كوني تشاترلي » ان تعرف الرقة الحقيقيـة والجنس الحقيقي « فاذا عرفتهما مع نفس الرجل يصبح ذلك شيئـا مختلفا «- تماما » .

وبهذا وحده تتم التجربة التي فشل « بركن » في أن يصنعهـا او يعيشها مع « هيرموين » من « نساء تحب » . « فهرموين » تحاول طوال سبع سنوات من علاقتها به ان تغذي روحه بفكرهـا وثقافتهـا واتساع معلوماتها واهتماماتها الفنية والفكرية والاجتماعية وتلح على ضميره بذلك الفيض من الثقافة الذي يكتنفه الادعاء وتفشل تماما في لمس العصب الحساس في روح ذلك الانسان القلق « لانه غير واثق من شيء ، غير مستقر ، انه يقلق ثم يأتي رد فعله ، وانا لا استطيـع ان اقول اي نوع من ردود الافعال يأمن بها ، ولا أستطيع ان اشرح آلام الاحتضار والمعاناة فيها » ... وتخيب كل محاولات « هيرموين » لاكتساب الحب سواء مع « بركن » او مع اي رجل آخر ، لانها علـى العكس مـــن « اورسولا » التي هي الخصب والوجـــدان المتدفـق الحساس ، كانت عقلا بلا ضمير ، وكانت مشروعا فاشلا لروح طيبـة تريد ان تحتضن كل شيء .

اما « وينفريد كريش » فهي فنانة صغيرة تفتح عيونها على عـالم كالاساطير القديمة حيث يقتل الاخ اخاه خطأ ، وتموت اختها غرقا ، ويموت ابوها الذي تعتبره المصدر الوحيد للحنان والعزاء في الدنيا ، ويموت « جيرالد » الشقيق الاكبر ، والوحيد الذي كانت تستطيع التفاهم معه ، يموت مغمورا في الجليد . وتحتمي « وينفريد » بفنها ، بالرسم والحفر ، ورؤاها الخاصة بعيدا عن هذا العالم المليء بالموت وتلتقي مع « جوردون برانجوين » في ذلـك الاستديو الصغير الذي يقع خلف قصرهم الكبير كأنه انعزل عن الحياة . وهي فنانة مراهقة في الثالثة عشرة . تنفتح وتبدأ خطاها نحو حياة الراشدين في هـذا المناخ القاتم . ويأتي ردها في رسالة كتبتها الى « جوردون » التي

كانت تعطيها دروسا في الرسم والحفر .. « اريد ان اكون حرة . ان اعيش في عالم خلاق من صنعه . »

وناتي الى هذه الشخصية التي نالت من الشهرة ربما اكثر من اي من الابطال « لورنس » وهي شخصية « اوليفر ميلورز » حارس الاسطبل في « عشيق الليدي تشارترلي » فهي واحدة من الشخصيات الفذة في الادب الانجليزي بوجه عام ، وفي ادب « لورنس » بشكل خاص . وليس في ادب « لورنس » من وجد الخلاص والسلام عن طريق الحب مثل « اوليفر ميلورز » . هو رجل في الاربعين ، يخرج من طبقته الصغيرة كابن لحارس اسطبل فقير . ويحاول « ميلورز » الارتقاء بالحياة بذكاء قلبه وبصيرته وحبه للانسان . ويذهب الى الهند رفيقا لاحد الجنرالات الانجليز ، فينال حبه ، ثم يصبح كولونيلا في الجيش ، ولكن صديقه الذي دعاه يموت فجأة فيعود « ميلورز » الى انجلترا ليبدأ النضال من جديد . ويتزوج زواجا غير متكافيء تكون شريكته فيه امرأة مبتذلة ساقطة كرست ايامها الاخيرة للتشهير به رافضة الاتفاق معه على الانفصال . ولا نستطيع ان نتبين ما اذا كانت تفعل ذلك لشدة حاجتها اليه ، فهي امرأة شبقة تتمتع بحيوية هائلة، ام انها كانت تكرهه وتبغي محاربته والقضاء عليه ، ولكن « ميلورز » منذ ان تركها واخذ ابنته ليعيش مع امه العجوز ويبني لنفسه كوخا صغيرا في الغابة ، يبقى وحيدا بعيدا عن ذلك « الرعب الذي يكمن في الخارج » ويعمل حارسا للاسطبل في ضيعة « كليفورد تشاترلي » في « رجبى » .

و « كليفورد » رجل يملأه الحقد ، فقد اخاه وساقيه في الحرب، وبات عاجزا بعد زواجه من « كونستانس » بشهر واحد . ويدور صراع خفي بين الحياة والموت في « رجبى » بين « ميلورز » و « كليفورد » لا يعرف تفاصيله او يلم باطرافه الا « ليدي تشاترلي » زوجة « كليفورد » وصديقة « ميلورز » ويظل « ميلورز » حائرا بين قراره الحاسم بالاكتفاء بذاته والانعزال عن هذا العالم الشرير وبين الاغراء بالحب والخصب يتجسد امامه في « كوني » وهو نموذج للشخصيات الصارخة في رفضها للحضارة الحديثة ، واحتجاجها على عذاب الانسان الدائم فيها . ومثل « اورسولا » في « قوس قزح » يقرر ان يبقى وحيدا وان يصل الى السلام مع نفسه ومع الاخرين من خلال وحدته ، ولكنه امام « كوني » يجد نفسه مدفوعا بعنف الى تلقي الحب ومنحه ، والاستجابة الى نداء الحياة المتفجر في هذه السيدة . ويتبين « ميلورزا » بعد عناء طويل وكما يقول احد اصدقاء «كليفورد» في مناقشة عن الحضارة « ان حضارتنا في طريقها الى الانهيار ، انها تمضي بسرعة الى هاوية ما لها قاع ، وعبر هذه الهاوية ، صدقوني ان المعبر الوحيد هو الحب الانساني » .

* * *

وهذا الرفض المطلق الذي ابداه « لورنس » للحياة الحديثة بما تحويه في قلبها من بذور الشر والموت ، والذي انعكس بصدق وشاعرية بالغة على ابطاله واحداثه ونهاياته دفعه الى الاحتماء بفكرة الحضارات القديمة ومثالياتها وخاصة حياة الانسان من قبل والتي يجب ان يعيشها من بعد . ولا تعني الحياة البدائية في مفهوم « لورنس » ، التوحش ومعايشة الحيوانات ولكنها في جوهرها هي العيش على الطبيعة حتى يستطيع الانسان ان يطلق العنان لعواطفه وانفعالاته البدائية البسيطة، فلا يكون مقيدا بقيم العصر الحديث ، ولا يخضع للقواعد التي يفرضها على سلوك الانسان وحياته .

والجماعية في الحضارات الاولى لم تكن كما يرى د. هـ. لورنس الغاء لشخصية الفرد واعتباره صفرا ، لان الحياة الانسانية حينئذ بما واجهته من مخاطر وصعاب ، كانت شيئا ثمينا جدا ولم يكن تجمع الناس مجرد حشد آلي ، وانما كان احتماءهم ببعضهم البعض وتكاتفهم معا لمواجهة الخطر المشترك ، ولصنع الحياة المشتركة .

ـ التتمة على الصفحة ٦٠ ـ

القبر والشاعر

ألقيت نفسيك في كهوف الغيب تنتظر النهايه
ملقى بلا شفتين تحتضن الضباب
الفجر ظلله السراب
حتى الاغاني اصبحت بلهاء ... ذلت للغوايه
مات الربيع غدا رمادا
والعهود صدى روايه
جف الحنين الى الغد الفتان ... واختنقت رؤاك
تبكي على مجد ترنح وارتوى ظمأ الهوايه
تلهو بلا قلب .. وتلهث دون رايه
اسقطتها وتركت قافلة الضحايا
تجري على وهج النضال
تقتات من عطش الرمال
وتشتري بالروح نسمه
الواحة المعطاء ـ لا تشحذ خيالك ـ
لم تعد ابدا بعيده
ردت اليها الروح فاخضلت شجيرات وليده
عادت لمأواها النسور
ودق ناقوس البشائر
اورقت مقل جديده
الروض يطفح بالشذا
الروض لم يقتل وروده
والمجد رغم حرارة الكلمات لن يأتيك
في مجرى قصيده
والشعر لن يلقى به الجبناء ـ بعد اليوم ـ جسرا
يؤدي الى قصر الامير .. ويغمر الاعناق تبرا
الشعر نافذة القلوب
وخلفها الشعراء اسرى
يشقى بها الملونون ... ويهلكون اسى وذعرا
او قدت نارا فاحترقت
وقد وجدت الان ... نهرا !!
الشعر يحفر لو علمت لمن يخون الحرف قبرا
تفنى وتبقى مفخر الاصرار ذكرى
صلى لنفسك مزق الاجفان دمعا واكتئابا
لن يفتح الفردوس بابا
للهاربين وسوف تمضغك النهاية

بغداد — الفريد سمعان

الحضارة والجنس

بقية المنشور على الصفحة ٣٩

وهذا النمط من الحياة التلقائية المليئة بالافراح والاعياد التي تقيمها الطبيعة ، اخذ يتلاشى شيئا فشيئا امام زحف الالة والحضارة الحديثة ، وكلما ازدادت عملية الابادة التي تقدم بين هذه الحضارة للملامح الباقية للطبيعة الاولى ، ازداد تباعد الناس عن نفوسهم الحقيقية ، وتضاءلت قيمة الانسان والحياة امام قيم التقدم السريع الذي يتم على حساب كل شيء جميل خلقه الله للانسان وفيه ..

يقول « لورنس » في « عشيق الليدي تشاترلي » .. « تفرشال، هل كانت هذه تفرشال ، انجلترا المرحة ؟ انجلترا شكسبير ؟.. لا ، ولكن انجلترا هذه الايام تخلق جنسا جديدا من البشر كما تحققت « كوني » . جنس بدأ يزداد وعيه بأمور المال والمجتمع والسياسة ، ولكن تلقائيته ووجدانه ميتان ، ميتان .. انصاف جثث ، كلهم انصاف جثث .. » فما زالت انجلترا شكسبير ببلاطها واحداثها وابطالها وبملامح الفروسية والشجاعة فيها ، تقدم نموذجا للحياة المثالية التي يحلم بها رومانسيو القرن العشرين الذين اصابهم القرف من لعنة « السياسة والمال والمجتمع » التي حلت بالحياة ، ولم تعد هناك صورة محتملة للعيش ، سوى ذلك الماضي بكل رموزه وايحاءاته وقيمه. واغراق بعض ابطال « لورنس » في عبادة الماضي يقودهم احيانا الى البوهيمية . ففي « نساء تحب » يعيش مجموعة من الفنانين ، نحاتين ورسامين وموسيقيين وشعراء ، رجالا ونساء ، شبانا في شقة صغيرة من ضواحي لندن وينامون عرايا كما ولدتهم امهاتهم . يتناولون طعامهم عرايا كأنما يعودون الى حياة الانسان الاول الذي يحرر جسده من كل شيء . وفي الصالة التي يجلسون فيها ، يضعون دائما تمثالا لامرأة افريقية سوداء يضج جسدها بالانوثة ، فهي نموذج للانثى الكاملة النضج ذات الجسد الممتلىء حياة وقوة ، والسيقان المستديرة والعيون الواسعة العميقة التي يشع منها نداء الجنس والحياة الاولى، ويصبح ذلك التمثال العاري مثار نقاش طويل بين « جيرالد كريش » الذي كان يحب ان يقرأ كتبا عن الانسان البدائي ، و «روبرت بركن» الذي عاش حياته كلها يتغنى باليوم الذي يصحو فيه فيجد الطبيعة كما كانت حين خلقها الله ، ولم تمتد اليها يد الانسان بالتشويه .

ويعيش « عشيق الليدي تشاترلي » حياته كاملة ، في الغابة . يقضيها وحيدا بعيدا عن ضجيج الحياة ، فيعقد صداقات مع الخيل والدجاج والزنابق واشجار البلوط . والكلب هو صديقه الوحيد الوفي الذي يلازمه طوال حياته . و « ميلورز » رجل « غير عادي » كما تقول عنه « كونستانس » ، لانه استطاع بحسم بالغ ان يرفض الثراء الذي عرض عليه ، ويعود من الهند بعد ان رقي الى رتبة « كولونيل» تاركا وراءه كل محاولات البحث عن التقدم في الحياة المادية وعاد ليعمل ، كما كان ابوه ، حارسا للاسطبل يروض الحيوانات ويصنع لها حداويها ويسوقها في رحلاتها الطويلة للعمل والنزهة . وفي الغابات المجاورة لمناجم الفحم في باطن الارض ، ولا يألف الزرع والحيوانات والطيور انفاسا انسانية مثلما يألف انفاس ذلك الرجل الوحيد « ميلورز » الذي يعيش هو الاخر في رؤيا جميلة ، حين يحب كوني ويعطيها الطفل . وهو الوحيد من ابناء جيله الذي يجعلها تشعر بهبة الحياة فيها . ويرفض « ميلورز » العرض الذي يقدمه ابوها بأن يعيشا معا على معونته ويتركها ليعمل في زراعة الارض بعيدا عن انياب الحياة في « تفرشال » ، حيث انتشرت قصتها وتداولتها الالسن . ويكتب « لكوني » عن امله في المستقبل وعن الصورة التي يراها للحياة الانسانية قائلا « فاذا ارتدى الرجال سراويل حمراء ، كما قلت لك فلن يفكروا بمثل هذه الكثرة في المال ، واذا استطاعوا ان يرقصوا ويقفزوا ويلعبوا في مرح ، وان يغنوا وينتشوا ، فسوف يعيشون بالمال القليل ويستطيعون اقناع نسائهم ، والاستمتاع بهن في الوقت ذاته . عليهم ان يتعلموا كيف يكونون عرايا وافري الجمال ، وان يغنوا الاغاني الجماعية ويرقصوا معا ويصنعوا الكراسي التي يجلسون عليها، وان يزينوا شعارات لهم ، في هذه الحالة لن يحتاجوا ابدا الى المال » .

* * *

وكان ايمان لورنس بالحياة البدائية الحرة مع الطبيعة ، وموقفه الحاسم من حضارة الالة ، طريقه الى الجانب الثاني في مفهومه للجنس . فالجنس الى جانب انه تجربة تكامل بين كائنين بشريين تؤدي الى توحدهما وامتزاجهما معا ، فهو التقاء الحياة الخصبة بالحياة الخصبة ، انه ليس تجربة متعة ليلية تتم في الفراش ولكنها بالاحرى قلما تتم في الفراش في قصصه . لان الجنس في مفهومه شيء ينتمي الى الطبيعة ، الى الخصوبة والنمو . وفي « ابناء وعشاق » تتم اول تجربة جنسية بين « بول » « ومريم » في الغابة التي تقع على حدود بيتها ، وهي تتم بعد حوار رائع يقوم بينهما ، وسط الزهور والاشجار الكثيفة ورذاذ المطر ، وليست تجربتهما الجنسية فحسب هي التي تتم في الغابة ، وانما تتوثق علاقات الحبيبين وتزدهر خلال سيرهما الطويل بين الاشجار والارض المزهرة.

وفي «قوس قزح» يحدث اللقاء بين «اورسولا» و «سكريبنسكي» على شاطىء البحر في ضوء القمر وفوق الرمال . ويعترف « وليم برانجون » « لانا » بحبه وهما مشغولان بنقل سنابل القمح في ضوء القمر استعدادا لطحنها ، وهو يقبلها حينئذ ويتفقان على الزواج .

اما « كوني تشاترلي » و « ميلورز » فانهما يتحابان ويلتقيان في الغابة المجاورة لمناجم الفحم ، هناك في ذلك الكوخ الصغير الذي ظل زمنا طويلا حلما يراود « كونستانس » وكانت تقوب شوقا للولوج من بابه الخشبي والارتماء على ارضه الملتصقة بالتراب . وظلت رحلاتها اليومية الى ذلك العالم المليء بالحيوانات والطيور البرية ، مرتبطة في ذهنها بالرغبة في دخول هذا الكوخ ، واكتشاف سر ذلك الرجل الاسطوري الوحيد . حتى كان اليوم الذي بكت فيه لمنظر الدجاج الصغير تهدهده امه وتطعمه .. وفي لفتة واحدة اكتشف « ميلورز » عذاب هذه السيدة ووقف على سرها ، وكان ببصيرته الصافية اقدر الناس على التعرف على احلامها الصغيرة والكبيرة . وكان ايضا يعرف مأساتها مع زوجها ، ويعرف شوقها الى الحب والطفل ، فيتحابان ويلتقيان روحا وجسدا ، ويحدث ذلك في احضان الطبيعة الغنية ، فيخرج كل من الحبيبين عاريا تحت المطر ، وهما وحيدان لا يراهما احد ، وتصرخ « كوني » صرخات الانسان الذي وجد حريته والقى بأغلاله بعيدا . انها صرخة الفرح والدهشة المزوجة بعدم التصديق . ويلحق به « ميلورز » وهو من انصار ان يكون « البشر عراة وافري الجمال » وتحت السيل المنعش الذي تبعث به السماء ، وفي قلب الغابة التي احياها المطر يتم اللقاء الجسدي بين الحبيبين المطاردين ، ويجمع كل منهما زهور النرجس والياسمين والزنابق البيضاء ليغطي به جسد الاخر ويتوجها «ميلورز» ملكة لقلبه ، وتتوجه « كوني » ملكا لقلبها . وتنام على الارض تحت العاصفة وقد غطت الورود جسدها ويستلقي « ميلورز » الى جانبها يطارحها الغرام كأنهما آدم وحواء خرجا لتوهما من الجنة . وبدءا في اخصاب الارض وتعميرها ، ثم يعودان معا الى كوخهما الخشبي ليشعلا النار احتفالا بعودتهما الظافرة الى الحياة الاولى بما فيها من سحر وغموض .

وفي « نساء تحب » تتلقى « جوردون » قبلة حبيبها الاولى فوق جزيرة نائية تطل على البحيرة حيث يحيطهما الليل والقمر والماء في احدى هذه الليالي التي يعترف فيها « جيرالد » بحبه بين الاعشاب والحيوانات البرية . ويعودان بقاربيهما ويشعلان الصواريخ ويعلن كل شيء كان خفيا بينهما في هذه الليلة الوثيقة الصلة بالطبيعة . اما

« اورسولا » « وبركن » فيمارسان اول لقاء جنسي لهما في احدى الغابات البعيدة التي لا يذكر لنا المؤلف اسمها الى حيث يقودهما الحب والرغبة والتفاهم الروحي العميق . فيقود بركن عربته الى لا مكان « فانا احب ان اذهب معك الى اللامكان » . وفي قلب الغابة الانجليزية النائية القى بركن بعربته بعيدا « واطفأ جميع المصابيح دفعة واحدة ، فكان ليلا مطبقا تتخلله ظلال الاشجار كأنها حقائق تشير الى وجود كائن ليلي اخر ، والقى ببطانية على الحشائش الطويلة وجلسا معا في سكون تام وساد صمت عميق دون تعقل . وكانت هناك اصوات خافتة تترامى من قلب الغابة دون ان تسبب ازعاجا ما ، فلم يكن الازعاج ممكنا لان العالم كان قد وقع تحت سطوة تحريم غريب ، وسر جديد كن قد ساده ، والقى كل منهما بملابسه واحتواها بكل جسده . ثم وجدها ، وجد حقيقة جسدها اللامرئية ، تلك الحقيقة الهفهافة النقية ، وكانت اصابعه وقد غرست في عرين اللامرئي شيئا غير انساني . كانت اصابع الصمت على الصمت ، جسد ليل غامض على جسد ليل غامض . الليل ذكر وانثى لا تمكن رؤيته بالعين او معرفته بالعقل ، انما نعرفه بالرؤيا التي نلمسها للاخرين النابضة بالحياة » .

* * *

والطبيعة بطل من ابطال لورنس الكبار ، تلعب دورا خالدا في كل رواياته سواء كانت تشكل « الخلفية » التي تقع عليها الاحداث ويسير الاشخاص ، او كانت رمزا يعاود الظهور كلما احتاج تكنيك القصة الى ذلك .

فالغابات كما سبق ان راينا رمز للحياة الاولى ، للحياة التي خلقها الله لآدم وحواء بما فيها من سحر وخطر ، ومعظم روايات لورنس لا تخلو من الارض الخضراء والغابات الكثيفة ، رغم ان انجلترا في عصره كانت تدخل في نطاق التحضر الآلي الضخم ، وكما يقول هو « ان انجلترا قد اخذت تمحو انجلترا الزراعية » ولكن حرصه الشديد على احاطتهم بالغابات والاحراش ، كان يقف دائما لتاكيد فكرته التي تقول ان الانسان لا يستطيع ان يعيش حياته كاملة وان يستمتع بكل جوانبها الايجابية ، الا اذا عاد الى الحضارات السابقة التي قامت وتقدمت على الزراعة ، وكان كل ما فيها مصنوعا بالايدي البشرية الخلاقة قبل ان تدخل الحضارة الى حياة الناس وتتمكن منها .

وكانت الارض في ادب د. هـ. لورنس رمزا خالدا للحياة المتجددة دائما التي تخرج من قلب الموت وتنتصر عليه ، فهي إم كل شيء واصله ، وكثيرا ما ارتبطت المراة في ادبه بالارض ، فهي « الام العظمى » للحياة ، منها تنبع واليها تعود ، وابطال لورنس دائما للضياع والموت . فهو حين يلقي بنفسه فوق الارض يعود الى منبعه الاصيل ، الى البيت الوحيد الذي يؤويه من شرود الدنيا ، وحين يرقد على الارض يصبح نبتا صغيرا من نباتاتها المزهرة المتعددة « ورأت كومن اي شيء محزن هو الرجل ، ضعيف وصغير المنظر حين يرقد على بطنه فوق الارض الكبيرة » فهي تلتقي « بميلورز » كأنه جزء من الطبيعة ، من الغابات والاحراش الممتدة التي تستمد نضرتها من الارض الام ، وتنمو بها وتعيش عليها .. اما « روبرت بركن » فانه يطلق الحياة اليومية بما فيها من الصخب والعنف ، ويعود الى احضان الارض بجوار طاحونة مهجورة يستأجر غرفتين هناك تطلان على البحيرة ، وعلى امتداد الاحراش ، وما من كائن هناك سواه والقطط وصاحبة البيت ... اما « بول موريل » في « ابناء وعشاق » كثيرا ما كان يذهب الى الغابة وحيدا حين لا يجد من يصغي اليه ويسمع شكواه ، حين يموت التباعد المؤقت بينه وبين امه ، وحين تسود علاقته بمريم وتعجز عن فهمه او يعجز عن فهمها . وحين يكتشف في كل مرة تمنحه جسدها انها كانت كأنها تقدم تضحية كبيرة لا بد منها للمحافظة على حبه ... « وبدأت تمطر فيما بعد ، وفاحت رائحة اشجار الصنوبر ونام بول ووجهه ملتصق بالارض فوق اشواك الصنوبر واخذ يتسمع هسهسات المطر الحادة ، تلك الضوضاء الرتيبة الملحة » . وفي « قوس قزح » يعيش توم برانجوين على زراعة الارض ، ويقيم هو واهله وجيرانه اعيادا للحصاد والحرث ، ويظهر « قوس قزح » دائما في حياتهم ، رمزا للسلام مع العالم ومع الناس، وهو ايضا يأتي بعد المطر او قبل المطر والذي هو رمز الحب والتجدد المستمر للحياة ، ويسود الحب حياتهم جميعا مع ذلك الارتباط الدقيق بالارض والظواهر الطبيعة كلها ولا يبدأ التعفن والموت في التسلل الى حياتهم الا حينما يفقدون ارتباطهم بالارض وتقديسهم لها .

والفن رمز يعود دائما للظهور في قصص لورنس ، فهو ليس فقط ظاهرة طبيعية يضيء الكون ويمنح الاشياء سحرها ، ولكنه رمز كذلك للفشل ولتفرد الناس ووحدتهم في داخل نفوسهم . كان القمر في الاساطير اليونانية يسمى « ديانا » وهي الهة الصيد الساهرة التي رفضت كل الالهة الذين تقدموا للزواج منها وظلت بمفردها كائنا مكتفيا بذاته وحيدا . وحين يظهر القمر في احدى حلقات الرقص في « ايرويش » يشعر « سكريبنسكي » بالضيق والضياع لان «اورسولا» صبيته تبتعد عنه وتحوم حول القمر ، وهي حين ترقص معه تشعر بوجوده خلفها ولكن لا تراه . وفي هذه الليلة بالذات يفشل « سكريبنسكي » في التفاهم مع « اورسولا » او حتى في تلقي استجابتها لعواطفه الحارة العميقة .

اما في « نساء تحب » فان « ديانا كريش » والذي يحمل اسمها مغزى ربما قصد اليه لورنس او لم يقصده تغرق في البحيرة ليلة عيد الماء ، هي ودكتور شاب كان يقود معها قاربها الصغير في نزهة ليلية ، في البحيرة التي تموج بآلاف العشاق والازواج والاصدقاء ، وحين يغرقان معا يقول لورنس « ولم تكتشف جثث الموتى الا قبيل الفجر ، وكانت ديانا تقبض بذراعيها على رقبة الشاب وتخنقه ، وقال جيرالد « لقد قتلته » وانحدر القمر على حافة السماء ثم غرق في النهاية البعيدة .

والقمر يذهل « روبرت بركن » ويشعره بالعذاب ، وفي مفاجأة طويلة مع نفسه على حافة البحيرة ازعجه ضوء القمر الصاعق الذي ينعكس بكماله على البحيرة ويحيلها الى فضة سائلة فيجمع احجارا كثيرة ويلقي بها الى قلب القمر « ومثل الجنون كان عليه ان يستمر ، وجاء باحجار كثيرة ، وقذف بها واحدا تلو الاخر الى قلب المر الذي يحترق بياضا حتى لم يعد هناك سوى صوت الضجيج الاجوف وبركة صافية المياه ليس فيها قمر بعد » .

فالناس يموتون في ضوء القمر ، ويرفضون الحب والخروج من ذواتهم ، وهو ينحدر في قلب السماء فيلغي كل العواطف والمشاعر الانسانية ويصبح فردا او يشعر معه الناس الى الوحدة والتقوقع على النفس ، وممارسة النشوة الداخلية دون اضفائها على العالم من حوله، لان القمر في حين يمنح الضوء لا يمنح الدفء ، على العكس تماما من الشمس التي تمنح الضوء والدفء معا ، وتكون سببا في النبات واذابة الجليد وفي اضفاء ذلك التوهم والوضوح على الارض .

والشمس لا تشرق كثيرا في اعمال لورنس ، ربما بسبب ذلك الجو الضبابي المتشائم الذي ينتشر دائما في قصصه وبسبب الغموض الذي يغطي كثيرا من شخوصه واحداثه ، وربما لان انجلترا بلاد لا تعرف الاشراق الحقيقي للشمس ، ولكن هذا السبب الاخير قد ينتفي عن لورنس لانه طاف كثيرا من بلاد العالم التي لا تفارقها الشمس ، ولكنه على اي حال لم يكن مغرما بها ولم يستخدمها كرمز في اعماله الا نادرا .

ورغم هذا الاغراق في استخدام الارض والطبيعة بكل مظاهرها كرموز في اعمال لورنس المختلفة ، فانه يختلف تماما عن الكتاب والشعراء الرومانسيين الذين شغلوا حياتهم وملأوا اعمالهم كلها بمناجاة الطبيعة والتغزل فيها واللجوء اليها كمصدر للجمال الذي لا ينضب ، لان د. هـ. لورنس من اكثر كتاب هذا العصر واقعية رغم نزوعه احيانا الى الغموض . ولكنه كثيرا ما يغرق في التفاصيل

الواقعية للاصوات والاشخاص حتى لا يكاد قارىء اعماله المعتاد عليها ان يجد فيه اللمسات الاساسية التي تتسم به كتابات د. هـ. لورنس وحتى تكاد هذه اللمسة الغامضة ان تذهب في فيض الدافع الذي لا ينقطع . فالى جانب ايمانه المطلق بجمال الطبيعة وسحرها الا انه استخدمها دائما كرمز للحياة ذاتها بتجردها المستمر المثمر ولنائها ، وكانت كذلك رمزا للاخصاب . وقد ارتبط كل ذلك بتجربة الجنس والتقاء الحياة بالحياة ، وكان الخوض في التجارب الجنسية او التحدث عنها شيئا محرما تماما على الادب الرومانسي .

***

اما الجانب الثالث الذي يتضح في مفهوم د. هـ. لورنس للحب والكتابة عن الجنس ، فهو هذه الرسالة التي كرس لها حياته ، ذلك الكاتب الكبير الذي عاش كثيرا من التجارب المره وخرج منها بهذا الحس العميق بالرسالة . وهو يقول للنساء : احببن رجالكن ، ويقول للرجال احبوا نساءكم، فليس امامكم بعد سوى ذلك الطريق للعيش ولتلمس اسباب الحياة في كل منكم . وكان ايمانه بالحب والجنس عقيدة في الحياة وفي فهمه للعلاقات الانسانية المثالية التي يراها . وباعتباره كاتبا عاش في ذلك العصر المضطرم بالحركة والتغيير والتعقد ، فهو يرى ان مهمة كل رجل في هذه الحياة ان يبحث عن امرأته ، فان وجدها حقق ذاته واستطاع أن يعيش متكاملا . وعلى كل امرأة أن تبدأ من البحث عن شريك لها يتجسد فيه مستقبلها كله ، وبدونه لا تستطيع تحمل الحياة . كان د. هـ. لورنس نفسه يحب امرأة المانية طاف من اجلها العالم هاربا من بلاده بعد اشعال الحرب العالمية الاولى التي وضعته في موقف حرج نظرا لجنسية زوجته، وكان في حياته الزوجية مع « مزيدا » رجلا مثاليا يحقق هذا النموذج من الكمال والسلام مع نفسه ومعها ومع الحياة ، واخذ لذلك يبشر برسالته هذه كأنها « دين جديد » اعتنقه لمواجهة الحياة ، واعلنه في كتبه واشعاره ورسائله المتعددة ، وقد كان د. هـ. لورنس من اعظم كتاب الرسائل الذين عرفهم تاريخ الادب وهو يدعو الانسان الى الاسترشاد بنداء الغريزة والنظرة فيه وان يسير وراء هذا النداء الذي يتفاوت ارتفاعا وخفوتا من رجل الى اخر ومن امرأة الى اخرى ، وعليه ان يصل الى نهاية الدرب الذي تقوده اليه هذه الغريزة ، وهناك سوف يجد المستقبل مع رفيق اخر يكون قد بحث عنه بنفس الاخلاص والرغبة .

***

ونأتي الان الى جانب اخر تتسم به عاطفة الحب لدى د. هـ. لورنس فالحب عاطفة متحركة ديناميكية تحتوي على بذور الموت والحياة في آن واحد . فهو عملية ديالكتيكية تصعد من الحب الى الكره ومن الكره الى الحب ، فلا نجد ابدا ذلك الاستقرار والثبات في العواطف الانسانية كما يفهمها ويمارسها ابطاله . فهم لا يعيشون في حالة هيام دائم وفناء لا ينقطع في المحبوب او الصديق ، وانما هم بشريون جدا يتعرضون لما يحدث لنا احيانا ـ كراهية بعضهم البعض ـ حين يكونون في حالة اتفاق وتفاهم تام على المستقبل ، انه عاطفة حميمة لا يعيبها الثبات والركود ابدا .

فحين تكون « اورسولا برانجوين » في حالة حب شديد « لروبرت بركن » تنتظره طوال النهار وتتسمع كل خطوة تدق « السلالم » وحين يأتي تشعر بفيض من الكراهية والعداء له .

وفي « قوس قزح » كثيرا ما كان الشعور بالكراهية والبغض والقرف يراود « وليم برانجوين » حين يرى زوجته « آنا » ولكن هذا الشعور يتلاشى تماما عند اول تفاهم بينهما .

وكثيرا ما كانت « كوني » تقرر قطع علاقتها « بميلورز » الرجل الذي منحها الطفل وجدد فيهاالحياة ، فكان قلبها يمتلىء حقدا عليه وسخطا لمجرد رؤيته ، ولكنها سرعان ما تعود الى طبيعتها وحبها العميق مع اول لقاء لهما .

وفي « نساء تحب » تقوم صداقة من اعمق الصداقات بين « بركن » و « جيرالد » ربما لا يدانيها من العمق والصدق الا علاقة « اورسولا و « جوردون » ، ورغم هذه الصداقة بين الرجلين يستدير « بركن » وهما في القطار في طريقهما الى لندن ليقول لصديقه « جيرالد » « انني اكاد اكرهك » ويجيبه جيرالد « اعرف ذلك ولكن لماذا ؟ » .. ولا يقدم بركن تفسيرا لانها طبيعة الحب عند لورنس ، عاطفة تخرج من قلب كل التناقضات صافية وشفافة وعميقة.. « وكانت هناك لحظة سكون مشحونة بعداء غريب بين الرجلين ، يقترب تماما من الحب » .

★ ★ ★

والحب عند ابطال لورنس شيء لا ينفصل عن الحرية « انما الحب هو الحرية » كما تقول « اورسولا برانجوين » ، وجميع ابطاله الذين يتوصلون الى تحقيق الحب والنجاح فيه يتوصلون في الوقت ذاته الى الحرية . فالحرية تتحقق لا بانفلاق الانسان على نفسه ووحدته دون شهود ، ولكن تتحقق حتما في اللحظة التي يخرج فيها من داخل ذاته ليلتقي مع صديق او رفيق للحياة ، وبذلك يكون قد بلغ السلام والاطمئنان ، والقى بكل القيود التي تحد حركته وتفكيره بعيدا ، ليلقي بنفسه كلها الى المحبوب .

اما بالنسبة للمرأة فقد يختلف مفهوم الحرية باعتبارهن نساء فرض عليهن المجتمع قيودا وقيما متعنتة قاسية . ففي مقابل الحريات الواسعة التي يمنحها المجتمع للرجل ، نجده يتشدد في معاملة المرأة ويفرض عليها التزامات لا يفرضها على الرجل ، حتى في المجتمع الانجليزي والاوروبي الذي افترض انه وصل الى قمة التحرر الذي حققته المرأة . وربما كان ذلك صحيحا الى حد ما في الفترة التي كتب فيها لورنس اعماله ، حين كانت المرأة ما زالت تطالب بحق المساواة مع الرجل في الاشياء الاساسية كالاجور وحق الانتخاب والترشيح وفرصة العمل .

ولذلك اكتسبت الحرية لدى بطلات لورنس معنيين مختلفين ، كل منهما يكمل الاخر : فالمرأة تريد تحقيق الحرية لنفسها في البدء ككائن انساني له حقوق البشر والتزاماتهم ، وليس ككائن ادنى من الرجل تفرض عليه الالتزامات وتنتزع منه الحقوق الطبيعية ، فالشيء الوحيد الذي اثار « كونستانس » وشقيقتها « هيلدا » في بدء شبابهما حين سافرا الى درسون لدراسة الموسيقى « انهن كن احرارا» وكانت هذه هي الكلمة العظيمة ، انطلقن في العالم الواسع المفتوح هناك في غابات الصباح » .

اما « مريم » في « ابناء وعشاق » وهي فتاة ذكية متوقدة العواطف لها مثلها وقيمها الخاصة التي تدافع عنها وتحبها ، فحين تأنس الى « بول موريك » الذي تعيش معه قصة حب طويلة تفضي اليه بمنتهى الصراحة بكل ما يؤرق ضميرها ككائن حي يشعر شعورا مريرا بالظلم الواقع عليه . فاشقاؤها الصبيان يذهبون الى المدرسة والنوادي ويتمتعون بخبرات واسعة لا حصر لها ، ومن بينها حرية ايذائها وهي تتحمل نصف اعباء المنزل مع امها ، ويكسبها ذلك الاحساس بالاضطهاد والظلم مسحة من القدسية الحزينة . وحين تلتقي للمرة الثانية او الثالثة مع « بول » تصرخ فيه « اريد ان افعل شيئا ، اريد فرصة مثل اي انسان اخر ، لماذا اسجن في البيت ؟ الانني فتاة ، لا يسمحون لي بأن افعل شيئا ؟! قل لي اي فرصة منحت لي في ان اعرف شيئا ما ، في ان اتعلم ، في ان افعل اي شيء ؟.. ليس ذلك عدلا ! الانني امرأة ؟ » .

ومسز « موريل » وهي امرأة شربت مرارة الفشل في زواجها من احد عمال المنجم ، وعرفت اي نوع من القسوة تبعثه الحياة الشقية في ارواح الرجال وضمائرهم ، كانت تعمل في شبابها مدرسة وهي تنتمي الى الطبقة المتوسطة ، تكسب عيشها وتتمتع ببعض الحرية وتعيش في احلام وردية فترى المستقبل والزوج والاطفال

والبيت السعيد . لكنها بعد الزواج ربما بأسبوعين ، تكتسف فظاعة الفخ الذي نصب لها والذي وقعت فيه بالفعل . ثم تقودها الحياة بتيارها الجارف دون ان تعترض او حتى تملك القدرة على الاعتراض، وتجد نفسها غارقة في تربية ابنائها الذين تمنحهم حيانها وتحاول ان تحقق بهم احلامها القديمة ، وفي كثير من اللحظات تعود الى نفسها لترى اي نوع مرير من الحياة قد عاشته مرغمة كالكلاب ، ولتتذكر هذه الدوامة العنيفة التي القيت فيها دون ان تجني ذنبا ، ثم تقول لابنهـا بول الذي تضع فيه احلامها بعد موت « وليم » اكبر ابنائها ، تقول « جرترود فوريل »» « لو كنت رجلا لما اوقفني شيء » فالمرأة تتحمـل عادة نصيبا اكبر كثيراً من نصيب الرجل في مباشرة البيت والاطفال والقلق من اجل الاشياء الصغيرة في الحياة اليومية التي تغرق فيهـا دون ان تدري .

وفي « نساء تحب » كان الشعور بالظلم كثيرا ما يعاود «جوردون برانجوين » ويملأها بالسخط على الحياة وعلى المجتمع والرجـال . وكما تقول « سيمون دي بوفوار » فانه رغم التقدم والحقوق الكثيرة التي اكتسبتها المرأة والتي تبدو وكانها قد حققت لها كل شيء فاننـا ما زلنا نعيش في عالم من صنع الرجـال . « وجوردون برانجوين » فنانة تتمتع بالكثير مـن حرية الحركة والسفر ، وعقد الصداقـات والعلاقات ، ولكن مع ذلك تكتشف بين حين واخر المأساة التي تعيشها المرأة بحثا عن حريتها وكرامتها ككائن انساني يجب ان تتوفر له كـل حقوق البشر . وفي احدى لحظات القلق والاحساس بالظلم تقـول « جوردون » « لارسولا » « يا الهي اي متعة ان يكون المرء رجـلا ! ».

« ماذا ؟! » صاحت « اورسولا » والدهشة بادية على وجهها .

فتجيبها « جوردون » « الحرية ، الحرية والحركـة » ويلتهب وجهها احمرارا ، احمرار يشوبه ذلك اللمعـان الغريب ، ثم تقول « انت رجل تريد ان تفعل شيئا فانت تفعله ، ولن تعرقل الاف العقبات التي تواجهها المرأة في حياتها » . و « جوردون » حتى حين تحقق الحب مع « جيرالد كريش » يظل في نفسها ابدا ذلك الشوق الى الحرية ، لان الحرية في حيانها شيء ابعد من الحب واجمل ، فهذا العالم الذي تشتهي ان تعيش فيه عالم غامض لا تعرف له ملامـح ولا حدودا . وتخطط للذهاب مع « لورك » الى المانيا ولكنها لا تعرف ماذا تفعل بعد ذلك . لقد اعتادت في رحلاتها السابقة ان تعرف كل شيء ، واسم الفندق الذي تنزل فيه ، ووجوه الناس الذين تلقاهم ، الشوارع والبيوت ، كل شيء . اما هذا العـالم الجديـد الذي تطرق بابـه مدفوعة بالمغامرة والرغبة في تحقيق حريتها وفي الاعتماد على نفسها ، فانه شيء ساحر ، تجسيد للحرية التي تريدها ، وهي لذلك لاتستطيع ان تقاوم اغراءه وتمشي اشواطا بعيدة لانهاء علاقتها « بجيرالد » حتى تذهب لهذه الرحلة المقدسة ، متحررة من كل القيود والالتزامات التي تتركها خلفها في انجلترا او في الشمال .

* * *

بقي ان نشير الى جانب اخر لم يعرفه قراء « لورنس » المعتادون على ادبه ، وهو انه كان شاعرا ورساما قبل ان يعبر عن نفسه بالقصة والرواية ، ولكن قبل ان نأتي الى مناقشة هذا الجانب في ادبه ينبغي ملاحظة حقيقة هامة وهي ان هذا الموضوع كان معنيا اكثر من اي شيء اخر بتوضيح الافكار الاساسية « للورنس » ولم يكن محاولة لتقييمه ككاتب او التعرض للشكل الخاص الذي اتبعه في كتـابة القصة . فللكتابة عن الشكل مجال اخر غير هذا . ولكن هذا المقـال استقرأ اربعة من اهم اعمال « لورنس » وحاول ان يستخدم منهـا افكـاره الاساسية خاصة عن الجنس والحب ، لانه من الهام جدا ان نزيـل من اذهان الكثيرين هذه الفكرة الشائعة عن د. هـ. لورنس والتي تقول انه كاتب منحل يكتب عن تفاصيل التجارب الجنسية ربما ليثير اكبـر عدد من المراهقين واكبر عدد من المعارك لينال الشهرة على حسابهما . ومع هذا فلا يمكننا دراسة افكار « لورنس » عن الجنس والحب دون التعرض للغة التي كتب بها قصصه ووضع حواره . فاللغة ولا شك عنصر لا يمكن فصله عن الشكل الذي يضع فيه اي كاتب افكاره ، ولكننا سوف نفصله عنها لانه عنصر هام في قصص لورنس يثير قضية هامة ، ذلك لان « لورنس » كتب قصصه كشاعر ورسام له اسلوبه الخاص ومصطلحاته والوانه قبل ان يكتبها كقصاص محترف . ولهذا نرى اسلوبه المتبع في كتابة القصص شيئا خاصـا به تماما ، فهو لا ينتمي الى مدرسة رغم انه واقعي جدا ورمزا جدا في الوقت ذاته ، ولكن هذا المزج الاصيل بين الواقعية والرمزية جعـل لغة الشعـر تلعب دورا كبيرا في كتبه وخاصة قصصه ، فنجد لكل كلمة يقولهـا دورها الخاص وايحاءاتها المتميزة والمتكاملة . ونتسمع دائمـا ذلك الوقع الشعري للالفـاظ والاحداث الذي يقودنا الى عـالم الملاحم والاساطير القديمة التي كتبت بالشعر . ويبدو ذلك الوقع واضحا في حواره الذي يعتمد على النغمة الشعرية والكلمة الشعرية المركزة دون الدخول في التفصيلات . انه يمنحنا عالما كاملا وحـالة نفسية كاملة في كلمة واحدة كما هي الحال في الشعر .

قالت « اورسولا » « لبركن » حين فاجـأته يجمع الاحجـار ويلقي بها كالمجنون الى ضوء القمر المنعكس على البحيرة :

« انك لن تلقي مزيدا من الاحجار بعد ... هل تفعل ؟! » .

« كم مكثت هنـا ؟ » .

« طوال الوقت .. لن تلقي مزيدا من الاحجار .. هل تفعل ؟ ».

« وددت ان ارى اذا كنت استطيع ان اجعله يذهب بعيدا تمامـا عـن البركـة » .

« نعم لقد كان مرعبا حقا .. لماذا تكره القمر ؟.. انه لم يؤذك قط .. هل فعل ؟ » .

« ورد قائلا .. هل كان كرها ؟ » .

« وساد الصمت بينهما للحظـات قليلة » .

وقـالت « متى عدت ؟ » .

« اليـوم » .

« ولماذا لـم تكتب ابـدا ؟ » .

« لـم اجد شيئـا اقوله » .

« ولماذا لم يكن هناك شيء يقـال ؟ » .

« لا اعرف .. لماذا يوجد نرجس في هـذا الوقت ؟ » .

وغالبا ما يعيش ابطال « لورنس » ، في حـالة من الانتشـاء والتصوف لا تحدث عـادة للبشر الا في حـالات الخلق او الحب او الانتماء المطلق للطبيعة . وهم في هذه الحالة ينطقون شعرا وتمتلىء لغتاتهم وحركاتهم بصفائه ورقته « فجأة دون ان يدري وجد نفسـه يلقي بقبضة من زهور الحقل فوق جيدها وشعرها » .

وحين تتم حـالة التكـامل والسلام بين « ليديـا » و « توم برانجوين » وحين يتوصلان معا الى اقامة ذلك القوس الذي هو رمز لتحقيق الذات والاطمئنان ، وحين يظهر في حياتهما قوس قزح الذي يربط السماء بالارض ويأتي بعد المطر او قبله فيحدث ظهوره احساسا بالنظافة والطهر « توصلت روح آنا « ابنتهمـا » الى السـلام وهي بينهما ، ونظرت اليهما واحدا بعد الاخر ، فهما مستعدان ليمنحاهـا الامن ، وكانت حرة ، ولعبت بين اعمدة النار واعمدة الثلج ، تملأهـا الثقة ، تملك الامان في يدها اليسرى والامان في اليمنى ، ولم تعـد مدعوة بعد لتشهد بقوة الطفولة فيها نهاية القوس المكسور ، فقـد التقى ابوها بأمها في عرض السموات ، وهي الطفلة كانت حرة ، تلعب تحتهما ، بينهما » .

وكان د. هـ. لورنس رساما له حس عميق باللون والخط والبعد انعكس واضحا على وصفه للاحداث والاشخاص الذي جاء دقيقا يسوده الانسجام او يشيع فيـه التنافر تبعـا لطبيعة الحدث او الشخصية او الحالة النفسية التي يتعرض لها . « وفي الشتاء حين كانت تستيقظ مع شروق الشمس، ومن خلال النوافذ الخلفية كانت ترى الشرق يتوهج باللون الاصفر والبرتقالي فوق الخضرة والجشائش المتألقة ، بينمـا

وقفت شجرة الكمثري الكبيرة قائمة وعظيمــة كاله ، وتحت شجرة الكمثري القائمة كانت بقعة الماء الصغيرة تنساب ناعمة ولامعة . كان الضوء اصفر ، وقالت « انه هنا » ... وفي المســاء يحل الغروب وهجا احمر يبدو خلال الفتحات الكبيرة في الثلج .. كانت تقول مرة اخرى « انه في الخلف » الفجر والغروب هما قدما قوس قزح اللتان تحملان النهــار » .

●●●

ولا يمكننا ان ننهي الحديث عن افكار د. هـ. لورنس دون تعليق سريع على موقفه الغريب من حضارة العصر وافكاره .

لقد مات د. هـ. لورنس بعد ان عانى المرض والفقر المدقع والنفي وجحود بلاده ، دون ان ينال اعترافا حاسما بموهبته ، واكسبه كل هذا مرارة وسوداوية انعكست على افكاره وفهمه للحياة . وكان امينا مع نفسه ومع قلمه في التعبير عن هذا العذاب ، ولكنه في حين رفض الحضارة الحديثة رفضا باتا لم يقدم بديلا عمليا ممكنا لها لان العودة للحياة البدائية الاولى شيء مستحيل في هذا العصر الذي قطع فيه الانسان شوطا هائلا في ميدان العلم والتقدم ، واخترع الآلة في الاصل لا لتكون اداة لتعذيبه ولكن لتيسر له الحياة وتفرش له المستقبل بالورود ، وقد كان اجدى ان ينقد « لورنس » النظام الذي يجعل من الانسان عبدا للالة بدلا من تخدمه ، وذلك بدون رفض الآلة ككل ورفض الحضارة الصناعية بكل مظاهرها .

ولم يقتصر رفضه على الحضارة فحسب وانمــا امتد الى كل النظريات والمذاهب الفكرية الفلسفية والسياسية والاجتماعية التي كانت نتاجا لهذه الحضارة ومحاولة لتصحيح الاخطاء التي وقعت فيها ووضع اسس لمستقبل عادل للبشرية كلها ، وانصب رفضه بصفة خاصة على الماركسية وهي من أهم فلسفات العصر دون شك لانها حاولت ان تضع حلولا عملية وحاسمة ـ ونجحت في كثير منها ـ لمشاكل الانسان المادية والمعنوية على حد سواء .

ورغم هذا الموقف الرافض لهذه الحضارة الحديثة وقيمهــا ، والتشاؤم الاسود الذي كان غالبا ما يشيع في اعمال لورنس .. فكثيرا ما كانت لحظات التألق والتفاؤل وحب الحياة تعاود هذا الكاتب الكبير الذي تعذب بالغربة وصدق الحس فيعود ليقول لنا اطمئنوا « فهناك اكثر من فجر لم يشرق بعد » .

القــاهرة   **فريدة النقاش**

فندق نيو پالاس
الإدارة : فتحي نوفل

وسط راقي
خدمة ممتازة
مياه ساخنة
تليفونات بالغرف
جناح خاص للعائلات
أسعار معتدلة
مصعدان حديثان
١٧ شارع سليمان الحلبي (دوبريه سابقا) القاهرة
خلف سينما الكوكب بعماد الدين
ت : ٤٥٩٣٦
س ت : ٧٩٧٩١
New Palace Hotel 17 Sh. Soliman el Halaby Telephone 45936 - Cairo

الى المنفى

« الى سعدي يوسف ـ الجزائر »

★

يا زورقا ملقى على المرفــأ ..
اقلــع . فان الريح هذا اليـوم شرقيـة ..
تجتـاح كل سواحل المنفى ..
فتعيـد بحــارا لموطنـه ونوتيـا ...

★

بالامس زرت محلك الخالي وراء السور ..
في قلعة « الحصن » الجنوبيـة ..
ورأيت ثم المعزف المهجور ..
اشلاء فوق الارض مرميه ..
فعرفت مهزلتي وآلامي ..
في جرحك المتمزق الدامي
في معزف قطعت قبل العزف اوتاره
وأبحت اسراره ..

★

وهربت قد ضاقت بك الدنيا
لا لون .. لا انغـام لا رؤيا ..
الا احتراقا مص قلب الليـل انواره
في قلعـة الحصن الجنوبيـه ..
وانين أوتـار .. وقيثـاره

★

قـاس حنينـك .. ليس « لابـن النـاس » ان يسلو
وينسى ..
لكن طعم الموت من نسيانك الاصحاب اقسى ..
قد كنت ارجو ان احس على السطور صدى اشتياقك
واشم في نبض الحروف لظى احتراقك ..
وحنينك الشهم العميق الى عراقك ..

★

فابعث ـ سلمت ـ له الحنين ...
يا سكتة الالم الدفين ...
يا زورقـا ملقى على المرفأ ..

ي. الصائغ